بونيني طه
صيحات نورس

بونيني طه

صيحات نورس

مجموعة قصصية

Dépôt Légal : 2015-1026
ISBN: 978-9947-66-037-9
EDITIONS
DAR ELQODS EL ARABI
84 cooperative elhidaya belgaid – ORAN
Tel: 0556230762-0792339956 FAX:041503206
quds_arabi@hotmail.fr
حقوق الطبع محفوظة

إهداء

إلى أصحاب الضمائر الحيّة، إلى كلّ رجل شهم، إلى كلّ ذائد عن الحقّ، إلى كلّ نفس غيورة على هذا الوطن وإلى كلّ مناضل في سبيل رفعته.. إلى كلّ هؤلاء أهدي هذه القصص وعلى شرفهم أحكيها.

مقدمة

مجموعة قصص يضعها صاحبها بين أيدينا لنقرأها ونتمتّع بها ونستخلص العبر منها لعلّها تفيدنا في حياتنا.

يسرد علينا الكاتب قصصا بأسلوب سهل، تعبّر عن واقعنا الذي نعيشه، وعن أحاسيسنا تجاه الإنسان والحيوان والطبيعة.

وقد اختار المؤلف التوجّه إلى القراء عن طريق هذه القصص لا لشيء، إلّا لأنّه حريص على الإسهام في إنماء ثقافة القراءة عند جميع النّاس.

ونتساءل: لماذا يحكي الكاتب عن سعادة النّورس؟ ثمّ لماذا يروي لنا هذه القصّة الطريفة التي جرت وقائعها في حديقة عمومية؟ وما محتوى القصص الأخرى؟

أسئلةٌ جديرةٌ بأن نطرحها، لكن الإجابة عنها تقتضي منّا مطالعة هذا الكتاب. فتحيّةٌ للكاتب عمّا قدّمه من عمل وبالتوفيق للجميع.

بونيني يوسف

صيحات نورس

كان هناك رجل، قليل الكلام دائم الابتسامة، بسيط الصورة، رثّ الهندام، يعمل إسكافيا في مدينة من مدن الجزائر الساحلية، كثيرا ما يُرى حاملا كتابا يقرؤه.

وإذا أتاه زبون، وضع كتابه ورحّب به ثمّ انكبّ على العمل فإذا فرغ منه عاد إلى كتابه.

ذات يوم أتاه رجل غنيّ، تبدو التعاسة في سحنته الصفراء الشاحبة. قَدم إليه وهو يغبطه على ذلك الهدوء والرضا. يودُّ لو يفتَكُّ منه قسطا من الحكمة تعيد الابتسامة لثغره. وطرح عليه سؤالا قديما، ما فتئ الناس يسألونه إيّاه:

"ما سرّ سعادتك رغم..."

وتردد الغنيّ في إكمال كلامه، فأكمل الإسكافي: "تريد القول رغم حالي البائس"..

قال الغنيّ: نعم! وأنا رغم الثراء، أعيش تعيسا.

- لأنّك نسر وأنا نورس. - قال الإسكافي.

فتعجّب الغنيّ لأمره.

وكي تتقشع غيوم الحيرة من فوق رأس الغنيّ، أعقب الإسكافيّ كلامه:

ـ كنتُ صيّادا في ربيع عمري، ثمّ هاجت عليّ أيام الشباب ونادتني رياح أوروبا المنعشة، فلبّيتها وتركت عائلتي وراء ظهري. ركبت قاربي الذي كان يحمل الأسماك، والذي حَمَلَني في ذلك اليوم المشؤوم إلى الأسماك لتأخذ بثأرها منّي!

أقلعت باكرا في خلسة، من مكان بين الصخور، تكبّدت عناءً للانطلاق منه، هروبا من أعين حراس الشواطئ، وكان يومَهَا عيدُ الفِطر.

أتدرِ ماذا يعني لطفل صغير، أن يستيقظ فلا يجد أباه في يوم العيد. وعندما يَسأل عنه، يقال له: ذهب ولن يعود؟!

هكذا قيل لولدي!.. وبعد ساعة من شقّ عباب البحر، تغيّر الجوّ وتلاطمت الأمواج وهاج اليمّ وماج، وراح يُرغي ويُزبد حتّى صار قاربي لقمة سائغة للبحر الغاضب، ولست أذكر إلّا أنّ قاربي صار في لحظة تحت أعطاف البحر، وكنتُ أنا أكابد عناءَ الخروج إلى

سطحه، ثمّ لا أتذكّر بعد ذلك شيئا ، حتّى فتحتُ عينيَّ على شاطئٍ من شواطئ جزيرة سردينيا.

أوّل ما فعلت أنّي شكرت الله بعدما تأكّدت أنّي حيّ أرزق، وأنّه قد كتُبت لي بقيّة من حياة. أتذكّر أنّي لم أقوَ على الحراك. لقد كان جسدي مرهقا، وكأنّما كانت تشدّني رمال الشاطئ لترجعني إلى البحر الذي لَفَظَني إليها.. بل هي العناية الإلهية، شاءت أن تُمهِلَني فرصة ثانية. ومع ذلك التعب، خامرني شعور بالندم لِما فعلتُ سابقاً وجعلت أعاتب نفسي وألومها: كيف بلغت بيَ الأنانية هذا المبلغ، حتّى تخلّيتُ عن مسؤولياتي وراهنت بحياتي للوصول إلى شاطئ الموت. ثمّ عاهدت نفسي أن أعود لأصلح ما فات.

ثمّ تفتّحت حواسّي فسمعت أصوات الطيور، وحوار المدّ والجزر، وشعاع شمس الصباح الدافئ. ثمّ تفتّحت عينيّ أو كادت.. وعندها رأيت منظرا مدهشا.

كان الشاطئ يعجّ بطيور النورس التي كانت تمشي بجانبي، ثمّ تطير، تصيح، ترتفع في السماء، تتمايل وتتراقص مع خيوط النسيم. بقيت كذلك أحدّق بعينين متعبتين، وفي لحظة ما نسيت نفسي ولم أعد أرى إلّا كائنات تطير طَرِبة فرحة مَرحة، تعتمد في حياتها على

الهواء الذي يحمل أجنحتها، على رمال الشاطئ الذهبية، وعلى غذائها المتمثّل في الطحالب وقليل من الأسماك الصغيرة...و كفى!

وفي تلك الحالة، بينما أستلقي على الشاطئ مسلوب الإرادة والقوّة، وردني سؤال. وكنت في شبابي كثير التفلسف قليل الرضا، أطرح الأسئلة التي لا تجد صدى أو إجابة، لكنّ ذلك السؤال كان مفتاحا لبابٍ أدخلني لعالم من الرضا والغبطة: هل يخالج طائر النورس خلال تحليقه شعور ما؟

واخترت جوابا لأنّ عقلي لم يتقبّل جوابا غيره. فكلّ العلامات تدلّ على فرحة عارمة يعيشها هذا الطائر، وهو يستمتع بالبحر، وبالطيران غير آبه بشيء. رأيته في الجوّ سابحا وصائحا وصادحا، يلامس الأجواء في سعادة ويهبط إلى الأرض في سعادة، ثمّ يعود ليطير مع أترابه في سعادة! ورغم أنّه يملك جناحين، فهو لا يطمع أبدا في مغادرة الشاطئ، والهجرة إلى ما وراء البحار، ويرضى أن يعيش حيث ترتاح نفسه.

افترضتُ أن هذا الطائر يحسّ حقّاً، ثمّ تخيّلت نفسي نورسا. نزعت عنّي تلك الشخصية البائسة وتقمّصت شعور النورس.. فأحسست بمقدار من السرور يتملّكني، لو وُزّع على الناس جميعا لكفاهم.

وعندما استجمعت بعد ذلك شتات نفسي، واسترجعت قوّتي، تدبّرت في أمر هذا الطائر وفي أمري، وتعلّمت درسا.

سكت الرجل البسيط، ثمّ قال للغنيّ الذي كان يستمع وعلامات الذهول والحيرة تلوّن وجهه:

- إنّ الناس يا صاحبي، يعيش بعضهم متوجّسا مختبئا، يترصّد وثَبَات مفترسه كأرنب خائف. والبعض الآخر يعيش مُرتفعا عن الأرض،شاهقا فوق السحاب كنِسر لا يهبط إلى مستوى الخلائق إلّا ليقتنص آخر أنفاس طريدته.

ثمّ سكت الرجل الحكيم كأنّما يُعلن نهاية كلامه، فسأله الغنيّ: بِمَ تنصحني إذن؟

فقال الرجل الحكيم:

- ألَم تفهمني حتّى الآن؟! لعلّ النسور يا صاحبي لا تفهم لغة النوارس.

باحث اجتماعي

تعوّدتُ أن أجلس في هذه الحديقة الصغيرة التي لا تخلو من أمثالها المدن الصغيرة. وقد كانت في بداية الأمر حديقة غنّاء، يجلس فيها الشباب، ويتسامر فيها الشيوخ ويقصدها الأباء مع أبنائهم. ومع مرور الزمن، جفّت النافورة التي تتوسّط الحديقة، واختفت الألواح الخشبية التي كانت تغطي الهيكل الحديدي للكراسي.. وذبلت الأزهار كما يبست النباتات وانتهت صلاحيتها. واختفى ذلك البستاني الذي كان يتعهّد الحديقة ونباتاتها، والنافورة وأسماكها. كنتُ أراه كثيرا خلال الأسابيع الأولى بعد فتح الحديقة للزائرين.. ثمّ لم أعُد أرى له أثرا أو أسمع عنه خبرا وكأنّه تلاشى!

لقد واظبت على المجيء إلى هذه الحديقة. آتي إليها عادة على التاسعة ومعي فنجان قهوة. كنت أختار مكانا يقع في طرف الحديقة، تحت شجرة كاليتوس، لأنّي أحبّ الهدوء والوحدة والانزواء لأقرأ كتابا وأراقب الحياة.. أحبّ رصد الحياة والإحساس بكلّ ما يعتلج في أكنافها.

أَلِفتُ أن أُمضي ساعةً، أقرأ وأرتشف القهوة وأنظر إلى السماء وألاحظ شتّى مظاهر الحياة. أُراقب القطط التي تمرّ أمامي صنوفا

وألوانا..و هي تنطّ وتموء...و أنظر إليها وأتعجّب من حركاتها. فالوقت عندي يتمطّط.. يتمدّد..لا ينتهي!..أنظر خلاله إلى الحمام واليمام والعصافير، أعدّد أنواعها وأصواتها وتغريدها وأقول: ما شاء اللّه!

هكذا كان حالي..جالس في مكاني والكائنات تدور من حولي. كنت أحمل للحمام معي حبّات قمح وفتات الخبز، أذروها أمامي فتهبط الحمامات من سمائها لتجلس إليّ وتستأنس بمجلسي.. لا!.. وبعد إعادة التفكير، عرفتُ أنّني أنا من يستأنس بها ويرتاح لرفقتها وهي لا تأتي إلّا لتلتهم حبّات القمح وتلتقط فتات الخبز فإذا فرغت من ذلك، أوْمَأَت إليّ برأسها الذي لا يتوقّف عن الحركة، لأزيدها وتستعطفني بهديلها ثمّ لا تلبث أن تطير! لأنّي ببساطة لم أعد مجديا، ورُفقتي لم تَعُد نافعة!

في بعض الأيام "النادرة" التي يكون فيها جيبي مرتاحا لا يعاني، مثل معظم الأيام... أُحضر بعض السمكات، وأعطيها للقطط فتُقبل عليّ، لا تخافني فأتمتّع بمنظر هذه الحيوانات الأليفة الظريفة وبعدما تنتهي السمكات وتصبح في خبر كان..تبقى القطط لدقائق ولا تذهب مباشرة.. لأنّ عليها تنظيف نفسها تحت

أنظاري طبعا! ثمّ تغادر المكان بدورها بلا شكر ولا سلام ولا كلام.. ولا حتّى مواء.

وتغادر مفسحة المجال لقطط أخرى أو حمامات أخرى! وهكذا صارت هذه المخلوقات الضئيلة التي لا يُعنى بها الناس..مثلي تماما..صارت محلّ اهتمامي. وأصبحت حياتي أكثر حيوية: أخرج من المنزل وأتوجّه إلى المقهى المحاذي للحديقة لأشتري فنجان قهوة، أدخل الحديقة على الساعة التاسعة. وأجلس لأقرأ كتابا..لا ينتهي..جلسة لا تنتهي!..ثمّ أنتظر الحمام وبعدها أستقبل القطط ثمّ تنتهي الفترة الصباحية.. أغادر الحديقة وبعد الظهر أعود، فأجلس مثل الصباح أقرأ وأنتظر أيّ شيء يدلُّ على الحياة، فأنا منذ شهور لم ألاحظ ما يستحقّ الملاحظة. فأنا تطوّعت لتنظيف الحديقة، لغرض واحد، وهو معرفة ما إذا كان في هذه البلدة بقيّة حياة! لقد اخترت هذه الحديقة لتكون مكان بحثي الميداني فأنا طالب في علم الإجتماع.

لم أرِدْ استجواب المدمنين والمنحرفين في أسباب انحرافهم والظروف التي تؤدي إليه، فهذا أمر اختاره الكثير من زملائي. ولم أختر موضوع العنف والأسباب التي جعلت من الملاعب والشوارع والمنازل أمكنة زاخرة بمظاهر العنف..و مواضيع أخرى كثيرة

تعوّدت كلّ دفعة أن تختارها، حتّى صار العمل فيها طريقا معبّدا يخوضه الطالب من أوله إلى آخره دون مفاجآت!

أمّا أنا فلسبب ما بدت لي الحديقة المكان المثالي الذي أتموقع فيه، وأتردّد إليه وأمضي فيه معظم أوقاتي، وأحاور فيه نفسي بدل أن أتحدّث إلى الناس الذين يمثّلون موضوع بحثي!...

ومن وقت إلى آخر يأتي رجل برفقة ابنه، فأجلس في مكاني أراقب تصرّفاتهما وسلوكاتهما وأتمعّن في عللها وأسبابها. لقد لاحظت أنّه كلّما أتى أب مع ابنه، يتقدّم الطفل نحوي، ليمازحني أو يتحدّث إليّ ومن الأطفال من يقترب ويقترب ثمّ يعود إلى أبيه هارِباً!

هكذا الإنسان يولد بريئا ليس في عقله شيء من تلك الهواجس، والأحكام المسبقة، يأتي دون أن يفكّر.. ليتواصل معك ويلعب معك..لا يحفل بشيء ولا يكترث لشيء ولا يضرب للأمر حسابات كثيرة وليس له خلفيات في ما يفعل...

في شهر أفريل كانت قد انصرمت ثلاثة شهور منذ أن بدأت أتردّد على هذه الحديقة، كان الجوّ جميلا ربيعيا يدعو إلى البهجة. خرجَت كلّ الكائنات لتحتفل بالطقس المعتدل، ولتبارك الفصل الذي تتزيّن فيه الأرض ويعمّ فيه السلام في الأجواء، فتغرّد الأطيار

وتتفجّر الأرض بالأزهار التي تتفتّح مستقبلة الشمس كلّ صباح..و بدأ يتوافد على الحديقة بين الآونة والأخرى بعض الأشخاص. يأتون متفرّقين في أوقات مختلفة، ليستمتعوا بالربيع الذي أضفى على الحديقة بعضا من الزينة الذي فقدتها طيلة فصل الشتاء الذي حمل إليها الأوحال وعرّى أشجارها، وقضى على ما بقي من نباتاتها...و صار يختلف إلى الحديقة بعض الشيوخ يأتون ليمتصّوا حرارة الشمس ويطردوا البرد من أجسامهم. هذه الظاهرة التي تتكرّر كلّما بزغت الشمس وسطعت بقوّة بعد غياب..

كنت أستغرب بل كنت أتعجّب في صغري من أولئك الشيوخ الذين يقابلون الشمس ويتمطّون تحتها كالقطط..لكن بعد هذه الشهور التي أمضيتُها تحت أعطاف البرد والشتاء، بظلفه وقسوته أدركت جيّدا ما معنى التمطّي تحت الشمس!

لقد أتى رجل مع ابنه ذات مساء وقد شارف اليوم وقت العصر. وراح ذلك الطفل الصغير الذي يراوح عمره سبع سنوات.. يراقبني..لعلّه كان يحاول أن يعرف سبب جلوسي وحيدا. كنتُ حينها أحمل دفتري وأدوّن يومياتي...تلك الأيام الربيعية جعلتني أكتب شعرا، أتغنّى فيه بعودة ملامح الحياة إلى الحديقة التي وجدتُ نفسي حارسها دون أن أشعر!

توقّف ذلك الطفل عن التحديق بي وراح يقفز فوق تلك الكراسي - أو ما بقي منها - واكتفى أبوه بالصراخ أما الطفل فواصل لعبه غير مكترث لأبيه الذي كان يصرخ من وراء الجريدة التي غطّت وجهه بالكامل! فهو يدري أنّها صرخة روتينية تحذيرية لا غير، يطلقها أبوه بين الفينة والفينة... أمّا أنا فاكتفيت بالنظر دون أن أحمّل نفسي مشقّة التدخّل أو أن أتجشّم عناء حشرِ نفسي لأنّي ببساطة الأمر مراقبٌ لأحوال الناس ومهتمّ بالظواهر الاجتماعية، ولكي أقوم بدوري في البحث والدراسة، عليّ أن أنأى بنفسي وبعواطفي عمّا يجري حولي وتصوير ما أرى كالكاميرا وتقييد ما أسمع كمسجّلة، ثمّ أدرس كلّ ذلك في مخبر الباحث بموضوعية وتجرّد.

وهكذا ظلّ الطفل يجري ويعبث ويقتلع الأزهار ويرمي بها، ثمّ توقّف عن العبث فجأة عندما شدّ انتباهه منظر القطط وهي تحوم حولي وتتمسّح على سروالي وكأنّها تطلب بركتي، راجية منّي أن أطعمها، وقد هرعت إليّ عندما رأت الحمام يأكل مِن يدَيَّ فتات الخبز. لكنَّ أكل السمك في ذلك اليوم كان حلمُ البشر الذين افتقدوه منذ صار شراؤه من مظاهر البذخ! فاعتذرت مرارا وظلّت تموء حتّى فَهِمَتْ في النهاية أو لعلّها ضَجِرَت وذهبت تستعطف شخصا آخر، لا يكون مفلسا مثلي.

وعندما غادرت القطط جاءني ذلك الطفل المشاغب وهو يحمل في يده ورقة وفي يده الأخرى قلم رصاص، فقد تبيّن أن هذا الطفل رسّام بارع! اطّلعتُ على الصورة فإذ بها صورتي والقطط والحمام تتحلّق حولي. عندما رأيت الصورة فزعت لأمري، فهي تظهرني كمتسوّل أو متشرّد. هكذا كان يراني ذلك الطفل المشاغب البريء. وربّما هكذا كان يراني كلّ من يمرّ على الحديقة أو يتردّد عليها.

في تلك اللحظة فقط رحت أتساءل: هل من الذكاء والصواب اختيار موضوع بحث ميداني في ذلك المكان بالذات حيث لا شغل ولا مشغلة؟!

ثمّ أجبت عن سؤالي وأنا أحاول استرداد عباءة الباحث الاجتماعي وتجرّده: نعم هو المكان بعينه، والآن ولم يبق على وضع المذكّرة إلّا شهر واحد، عليّ البدء في المقابلات الميدانية، حيث أطرح أسئلة على شخص أو شخصين في موضوع بحثي.

وأتممت قبل ذلك البحث النظري في البيت بعدما حصّلتُ المراجع وصنّفتُها واخترت منها ما أحتاج ثمّ طبعت في الحاسوب كلّ الجانب النظري من البحث وجعلته موافقا لمواصفات البحوث الجامعية في

علم الاجتماع، مستشهدا حينا، مقتبسا حينا آخر دون أن أنسى التهميش في أسفل الصفحات.

وقد بلغني أن أصحابي يتقدّمون في مذكّراتهم ومنهم من أتمّ مقابلاته، وهكذا صار لزاماً عليّ أن أُسرع وأُتمّ البحث الذي أعتبره فريدا ولم يسبق الخوض فيه من أحد قبلي!

مرّت الأيام وأنا أحضّر الأسئلة ثمّ جاء اليوم المنشود. وأردت فيه أن أبدو كطالب جامعي على وشك التخرّج والحصول على شهادة في علم الاجتماع. هذا العلم الذي يعتبر العرب مؤسسيه، ويؤهّل صاحبه ليكون مستشارا وزاريا أو رئاسيا أو باحثا كبيرا أو أستاذا أو ...راحت تحدوني تلك الآمال وأنا ألبس بذلتي النظيفة الجديدة الوحيدة... ورحت صباحا كعادتي ودخلت على المقهى فأنكروني في أول مرة ثمّ عرفوني بعد أن طلبت القهوة في كأس قابل للرمي وأمعنوا النظر في ملامح وجهي..هذه الملامح التي لا تكذب ولا يختفي وراءها شخص ولا تتبدّل بين عشيّة وضحاها...

ثمّ ذهبتُ أدراجي أحاذر أن تصيبني حبّة من الغبار في سروالي، أو أن يعلق في لباسي شيءٌ من رماد سيجارة، رأيت صاحبها يلوِّح بها في الهواء بينما هو يتحدّث، وهي تصيب هذا وذاك...فتركت ذلك الرصيف وانتقلت إلى الجهة المقابلة، وعندما اقتربت من الحديقة

عدتُ وعبرت الطريق ودخلتُ الحديقة وتوجّهت إلى المكان الذي تعوّدت عليه وملَّ منّي! وطفقت أبحث في أغراضي على ورقة أو أوراق أضعها فوق ذاك المكان لأجلس عليها...

نسيت أن أَذكُرَ بأنّي شديد الحساسية على نظافة ملبسي وخاصّة عندما أرتدي شيئا جديدا مثل ذلك اليوم...

جلست وأخرجت كتابي ووضعت قهوتي بجانبي ورحتُ أقرأ كتابا في المواطنة، علّني أستقي منه بعض المعلومات في بحثي. لقد كان مشوّقا ومفيدا ومثيرا للاهتمام، واختياري لموضوع التخرّج يصبّ في إطار هذا العنوان الكبير: "المواطنة".

قرابة العاشرة صباحا أتى رجل كهل يسكن في الحيّ الذي يحاذي الحديقة. أتذكّر أنّه كان كثير التردّد عليها عندما كانت للكراسي هيبتها وألواحها الخشبية..أيّامَ كانت الأسماك الذهبية تسبح في الحوض الذي تسيل على جنباته النافورة ذات الماء الرقراق..أيّامَ كانت الأزهار تفوح بالعطور، والنباتات تغطّي الحديقة بسيقانها الخضراء الممتدّة..أيّامَ كان للحديقة حارس يقيها من بطش الأطفال الأبرياء!..و الطامعين في كلّ شيء حتّى خشب الكراسي وأسماك الزينة!!...

لكن ذلك الكهل منذ تلك الأيّام المجيدة لم يعد يأتي إلّا نادرا.. وفي يده ذلك الجهاز الذي لا أحبّ استعماله إلّا للضرورة، ألا وهو الهاتف النقّال. لقد كان يخرج من منزله ـ حسبما لاحظتُ مرّة وهذا من متطلبات بحثي ـ وهو يتحدّث في الهاتف ويدخل الحديقة بغير وعي، ولا يخرج إلّا وقد انتهت مكالمته فيكتشف مستغربا أنّه يتواجد بالحديقة فيعود إلى المنزل!

قرّرت أن أقابل هذا الرجل، فهو العينة المناسبة للمقابلة، وأنا أُعنى عناية شديدة باختيار الشخص المناسب لمقابلتي. نهضت من مكاني، أخذت أوراقي وكلّ أغراضي واقتربت منه وسلّمت واستأذنت للجلوس وجلست. لم يكن يومها يتكلّم في الهاتف بل جاء ليجلس ويستمتع بصباح جميل برفقة الفراشات، حتّى جئت لأعكّر عليه صفوه.. وبدأتُ المقابلةَ قائلا:"أستأذنك يا سيّدي في مقابلة..و قبل ذلك، أعرّف نفسي: أنا منير طالب جامعي في علم الاجتماع..أحضّر مذكّرة التخرج..و قد اخترت ظاهرة اجتماعية كموضوع لبحثي."

نظر إليّ الرجل مبتسما وعلامات الحيرة تلفّ وجهه ثمّ قال:

ـ اعتقدتُكَ عامل بلدية تُعنى بالحديقة..فقد كنت أراك من وقت لآخر وأنا ذاهب للعمل أو عندما أكون في شرفة منزلي أنعمُ بفنجان

قهوة...كنت أراك جالسا في ذلك المكان..اعتقدت حقّاً بأنّك تعمل هنا!.. والآن تقول لي طالب جامعي..حسناً! ما هو موضوع بحثك..قد أستطيع مساعدتك فأنا أحبّ البستنة!"

نظرت إليه مستغربا ما دخل علم الاجتماع بالبستنة، هو يعتقد أنّي اخترت الحديقة لأدرس النباتات!..و أين هي النباتات؟!! فقد أتى سكّان الحيّ على الأخضر واليابس...فأجبته:

ـ حسنا..سأطرح عليك بعض الأسئلة الأولية ثمّ أضعك في صلب الموضوع.

ورحت أطرح عليه أسئلة عن الحيّ، والمدينة والمواطنة فكان يجيب أحيانا، وأجيب في مكانه أحيانا أخرى، حتّى وصلتُ إلى الموضوع الرئيسي الذي تبنى عليه مذكّرتي:

ـ لخّصتُ الموضوع يا سيّدي في سؤال: "هل سيقوم سكّان الحيّ بإصلاح الكراسي والاعتناء بالحديقة لتبقى جميلة نظيفة حتّى يستطيعوا الاستمتاع بالجلوس فيها؟".

استهجن الرجل كلام الشابّ، وقال له وهو يزمّ عينيه، ويشيح برأسه يمنة ويسرة:

ـ يا ولدي..اعتقدت أنّ البلدية هي المسؤولة على تنظيفها وإصلاح ما ضاع منها ، وحراستها وما إلى ذلك من أعمال العناية والصيانة. وقد رأيتك دائم الجلوس هنا فاعتقدت أنّك المسؤول عليها!..
و بَدل أن أعقِّب عمّا قال أكملت شرح الإشكالية:

ـ ..رحت أراقب تصرّفات الناس خلال الشهور الماضية، وهم لا يأبهون لما يجري في حيّهم وفي مدينتهم فبدل أن ينظّفوا الحديقة راحوا يرمون على أعتابها القاذورات.. وأستحي يا سيّدي مِن أن أُعدّد على مسمعك بعض الأفعال والتصرّفات التي شاهدتها بأمّ عينيّ والتي ملأتُ بها يومياتي..و دفتر ملاحظاتي..لقد انتظرت يوماً بعد يوم أن تحدث معجزة، فأجد شخصا ما وهو يصلح الكراسي مثلاً...

قاطعني الرجل قائلا:

ـ أنت تردّ علينا اللّائمة متجاهلا السلطات.. التي من واجبها حماية ممتلكات الدولة والشعب، أليس كذلك؟! أنسيت أن السارقين لا ينهبون مكانا ولا تطوله أياديهم.. إلّا إذا تركته السلطات لمن هبّ ودبّ يعثو فيه فسادا؟! أرى أنّك مخطئ يا ولدي!!...

ـ إذا افترضنا أن كلامك حقّ وصواب يا سيّدي، أليس من واجب سكّان الحيّ أن يحافظوا على حيّهم الذي هو مكان عيشهم وحماية الوسط الذي يعيش فيه أبناءهم، والعناية به حتّى ينعموا به؟

ـ نعم يا ولدي..لكن المشكلة أنّك تتكلّم عن الحيّ بصيغة المفرد، كما لو كنّا مجتمعين ومتّحدين..لكنّنا لسنا كذلك!

ـ حسنا يا سيّدي.. إذن المشكلة هنا تتعلّق بعدم التواصل. فكلّ فرد ينتظر من الآخر المبادرة، حتّى صار الحيّ خرابا..

قلتُ هذا الكلام بصرامة ورحت أكتب بعض الاستنتاجات التي بدت لي مهمّة في الاستدلال المنطقي..حتّى فاجأني بسؤال:

ـ وأنت.. ألا تعتقد أنّك مُقصِّر وقد أمضيتَ في هذه الحديقة شهورا؟ كان يجدر بك على الأقل كتابة رسالة للسلطات أو إبلاغهم، أو أن تتصل بالجيران ليتدخّلوا...

ـ ليس هذا جزء من بحثي الاجتماعي فأنا لا يجب أن أتعدّى الحيّز الذي تُخوِّل به الدراسة والملاحظة.

وراح يمطرني بالأسئلة حتّى عدتُ أنا موضوعُ البحث! وأغدق عليّ بعبارات الملام والعتاب وقد استعاد ثقته في نفسه، واستجمع رباطة

جأشه. أراد أن يحفظ ماء وجهه واسترداد ما سُلب من كرامته على يد طالب في العشرينات من العمر! فقال لي:

ـ لقد كان يجدر بك أن تُدرِج في بحثك هذا عملا أكثر إيجابية كمحاورة الجيران وأخذ آرائهم..من يدري!.. ربّما كنتَ ستُحَصِّلُ من وراء ذلك على نتيجة أحسن من مجرّد إلقاء اللوم على هذا وذاك...

لا أنفي أنّي في تلك اللحظة قد أحسست بثقتي قد فرّت منّي، وأنّي قد ضللت الطريق قليلا..ثمّ عدتُ بتركيزي على موضوع البحث. وقلت لنفسي أشدُّ عضدها: "أنا لست مُصلِحاً اجتماعيا وما أنا إلّا طالب يريد إنهاء سنته بنجاح ونيلِ شهادة تمكّنه من العمل.. ودراستي هذه قد تميط اللثام وتنزَعُ اللُبس عن كثير من النقاط التي جرت العادة على أن تبقى مسكوت عنها.."

هكذا قلت لنفسي، ثمّ دوّنت الكلام الذي قاله لي الرجل الكهل بحذافيره، كي أكون موضوعيا..كعادتي طبعا..ثمّ انتقلت إلى رجل آخر.. والد ذلك الطفل المشاغب الذي رسمني..و كان ذلك الطفل يرافقه.

رمقني الطفل بنظرات مشوّشة. لم يستطع ربط صورتي الجديدة بأيّ من الصور التي يحملها في ذاكرته.. رأيته يبتعد بينما أنا أحاور والده وقد حمل ورقته وقلمه وذهب إلى المكان الذي اعتدتُ أنا الجلوس فيه، وراح يتأمل فيّ وفي أبيه بحكمةٍ ويرسم...

أمّا أنا فاستغللت لحظات الوئام التي سادت في الحديقة أثناء انشغال ابنه بالرسم. وكأنّها هدنة أو كأنّه الهدوء الذي يسبق العاصفة. طرحتُ أسئلتي.. ولم أوفّق إلى أكثر ممّا جنيته من الكهل. ورماني الرجل باللوم وأبى أن أحمّله وجيرانَه المسؤولية إباءً منه وعزّة!

كتبتُ..كعادتي..كلّ شيء ولم أُغفل كلمةً، ثمّ لملمت نفسي وأغراضي وشكرت الرجل وهممت بالمغادرة وقد أكملت الحلقة الأخيرة من مسلسل "بحث اجتماعي "غريب" في حديقة حيّ عمومية".

وبينما أنا أغادر شدّني الطفل وأعطاني الصورة التي رسمها. تفاجأت من جديد، وقد وجدت نفسي بنفس الأسمال البائسة التي رسمني بها البارحة، وكأنّي بنظره لا أزال متشرّدا، وصوّر أباه وقد ارتسمت على وجهه تكشيرة، وما أذهلني..تلك الحمامات والقطط التي رسمها! فقد تعرَّفَت عليّ وأتت إليّ تستجديني وتسترحمني..غير أنّي كنت غافلا عنها بالمقابلة التي كنت أؤديها.

أخذتُ الصورة كتذكار من صبيٍّ مشاغبٍ حطّم نصف الحديقة..و ذهبتُ فاعترضني صوت الرجل الذي لا تزال التكشيرة لا تفارق وجهه:

ـ متى تُكمل المذكّرة؟!

ـ بعد أقل من شهر!

و قال لي بنبرة ذكيّة وفي وجهه علامات الانتصار:

ـ إذن أتمنّى أن أراك هنا بعد شهر وأنت تعتني بالحديقة!

قلت بصفة آلية وبدون تفكير:

ـ حسنا إن شاء اللّه!!

ومضيت إلى المنزل، لأعمل على المذكّرة وأقيّد ما جمعته من معلومات ميدانية، ثمّ جاء الوقت المنشود فوضعت المذكّرة.

وانتظرت يوم العرض فعرضت مذكّرتي، وكنت أتوقّعُ تجاوباً خاصاً من الأساتذة غير أنّهم كانوا "مطنِّشين"، مشغولين بالمكسّرات ـ التي ندِمتُ على وضعَها أمامهم ـ والحلوى التي كانوا ينتظرون أن أَفرغ من عرضي حتّى ينقضّوا عليها...و كانوا من وقت إلى آخر يتجشّمون عناء النظر إليّ، يستمعون إلى بعضٍ ممّا أقول ثمّ يعودون إلى انشغالهم.

وهكذا مرّ اليوم الموعود الذي من المفترض أن أجني فيه حصاد الشهور الماضية..مرّ ذلك اليوم من غير نتيجة ترجى أو عبرة تستقى أو حديث ينتفع به. ومررتُ مرور الكرام، فسمعني من سمع وغطّ في نومه من غطّ، وأكل الفول السوداني من أكل...ثمّ تحصّلت على نقطة جيّدة لقاء المكسّرات التي تحمّلت مصاريفها...و انتهى.

وبعد أيّام.. بعدما انتهت أيّام الجامعة و"بحوثها" بدأ البحث الحقيقي..البحث عن العمل. فصرت أكابد مشقّة البطالة وفراغها ولم ألبث طويلا حتّى وجدتُ نفسي في المكان ذاته الذي عهدتُ الجلوس فيه.. أُطعم القطط والحمام..أمّا الحديقة فبقِيَت على حالها.

الحكيم والباحث عن الحقيقة

جاء رجل من مكان بعيد باحثا عن حكيم القرية. وعندما وصل أرشده سكّانها إلى مكانه. كان هذا الحكيم يفترش الحصير، ويجلس تحت خيمة من القش. دخل الرجل عنده وجلس بين يديه.

كان الحكيم حينها يراقب قطّا وهو يتمطّط تحت الشمس. رحّب بضيفه وأجلسه إلى جانبه، وطلب من أولاده أن يحضروا له طعاما.

قال الرجل للحكيم:

جئتُ من منطقة تقع وراء ذلك الجبل (وأشار بيده إلى جبل شاهق بعيد) وقد دلّني النّاس عليك وقيل لي أنّك أعلم مَن في البلاد. مشيتُ أربعة أيّام وخمس ليال وبذلت جهدا جهيدا في سبيل الوصول إليك...

بقي الحكيم يستمع إليه منصتا، يُلقي بنظرات خاطفة نحو حركات القطّ الرشيقة، ثمّ يعود بسرعة لكي لا يُخِلَّ بحديث الضيف القادم من بعيد.

اطّرد حديث الرجل وهو يعدّد خِلَالَ الحكيم وسجاياه ويشيدُ بسُمعته التي تخطّت الجبال.

وبينما هو كذلك، كان الحكيم يلقي بطرف عينيه نحو القطّ الذي كان يلعب ويقفز ويداعب حبّات الحصى.

لاحظ الرجل النظرات المختلسَة من عيني الحكيم، لكنّه لم يأبه لها ولم يُثنِه ذلك عن مواصلة حديثه. ولمّا أنهى الرجل مقدّمته الطويلة، سكت لحظة ثمّ قال:

ـ يا أيّها الشيخ الحكيم، أخبرني عن الأرض وما أودع اللّه بها.

فأجابه الشيخ مباشرة وبعفوية:

ـ الجمال.

فقطّب الرجل حاجبيه وقال متعجّبا:

ـ الجمال !! أسألك سيّدي عن العالم الفسيح الواسع الشاسع. أريد أن أستقي من علمك الغزير وأن أنهل ممّا تعلّمت في هذه الحياة...

وقال الحكيم بينما هو يراقب القطّ الذي تسلّق شجرة وأرخى ذيله من فوق غصن وجلس فوقه كفهد، وراح يزمُّ عينيه البلّوريتين:

ـ يوجد في الأرض كل ما هو جميل.

وأنهى جملته المختصرة بابتسامة تتألق رضا وحكمة.

ولبث الرجل صامتا ينتظر من الحكيم أن يستطرد ويكمل حديثه غير أنّه لم يتفوّه بكلمة إلى أن همّ الرجل بالكلام فدلف حينها أبناء الحكيم يحملون مائدة فيها من كل ألوان الطعام ثمّ اقترب أحدهم من الحكيم وهمس بكلمات في أذنيه ثمّ انصرف.

ذكر الرجل الحكيم اسم اللّه وبدأ الأكل أمّا الرجل فبقي يحدّق بعينين مستغربتين. ظلّ جامدا وكأنّ على رأسه الطير، بينما ينسلّ إلى فؤاده الشكّ والحيرة. وخلال ذلك حامت حوله حشرة فأمسكها ورمى بها في الأرض.

أكل الحكيم ممّا قُدِّم لهما من أشهى الطعام تحت أنظار الرجل ثمّ حمد اللّه وشكره. ونظر إلى الرجل وسأله:

- أشبعت؟

فزادت حيرة الرجل: كيف يسألني إذا شبعت وأنا لم آكل!!

ثمّ ضحك ضحكة وهو يهزّ رأسه وعزم على الحديث ثم توانى عن ذلك وقام من مقامه وعزم على المغادرة. وقبل أن يخرج قال للحكيم:

- أظنني قد أخطأت العنوان!

و ألقى السلام وهمّ بالخروج فاستوقفه الحكيم، بعدما غيّر جلسته وبدّل سحنته. وقال للرجل:

ـ اجلس يا ولدي.

لاحظ الرجل التغيّر في ملامح الحكيم فانصاع لأمره وعاد وجلس بين يديه. وقال الحكيم وهو يطالع وجه الرجل ويقرأ فيه حيرة تشبه اليأس:

ـ هل تتذكرّ نهر الدببة الذي مررت عليه بعدما قطعت الجبل، حيث أمضيت ليلتك الأولى في العراء؟

ـ نعم!

ـ إذن تتذكّر الأشخاص الذين وجدوك بجانب النهر، تعاني الجوع والتعب.

تلوّن وجه الرجل وجفل، ثمّ استرجع برودة أعصابه وقال : نعم أتذكّر. وواصل الحكيم:

ـ لم ترض يومها بأن تمضي ليلة معهم حول تلك النار الدافئة في هذا الخريف البارد، وتأكل من سمك النهر، وتتّقي شرّ الدببة. وعندما

سألتَهم عنّي: عرضوا أن يُقِلّوك على زوارقهم التي تشقّ المياه الفضّية الصافية التي ترتوي منها الغابة ومخلوقاتها. أليس كذلك؟

- نعم، صحيح وكيف علمت ذلك؟

- لأنّ أحد أولئك الأشخاص من تلامذتي.

و سكت لحظة وأردف الشيخ:

ثمّ اخترتَ أن تحدو طريق الغابة وتَطرُق الدروب الصعبة بين الوحوش. ووصلت إلى كوخ في أعلى تلّة. هل تتذكّر ماذا كان أمام الكوخ؟

- لا .. فقد كنت مستعجلا.. طلبتَ من الشيخ ماءً وواصلت المسير.

- لقد طلب منك الرجل البقاء للعشاء، وأن تبيت تلك الليلة وتشقّ طريقك في الصباح. أمّا زوجته فقالت لك بأنّها ستطبخ طبقها المفضّل والذي تستعمل فيه خضر الحديقة التي لا تتوفّر إلّا في هذه الأيّام. أرأيت المجسّمات التي تتناثر حول الحديقة؟

- لا لست أذكُر.

وقال له الرجل:

ـ ومن أخبرك بلقائي مع الشيخ؟

ـ الشيخ صديقي. وقد أرسل لي بعضا من الخضر، مع بعض الخيّالة المتّجهين إلى قريتنا لحضور الاحتفال، والذين اتّبعوا طريقا مختصرا إليّ بينما كنت تمشي هائما في ظلمات الليل والغابة. وقد بعث لي رسالة يخبرني فيها بسؤالك عنّي خوفا عليّ.

ـ وبعدما أخذتَ قربة الماء، تابعت مشوارك ومررت عبر الأحراش وقابلت في المساء رجلين، طلبا منك الانضمام لمشاهدة الشُهب التي تُرصدُ بالعين من ذلك المكان المستوي الجميل الذي يلتحف السماء، لكنّك اخترت المضيّ قدما.

وقد أخبرني ولدي الآن، بأنّك بعدما وصلتَ إلى القرية، رحّب بك السكّان وطلبوا منك المشاركة في المهرجان الذي نحتفل فيه بزواج عشرة من رجالنا...لكنّك كنت مستعجلا ـ كعادتك طبعا. ولم تشارك. ووُضِعت أمامنا قبل قليل مائدة الطعام بشتّى صنوف المآكل والمشارب ولم تشأ أن تأكل منها هنيئا مريئا. سكت الحكيم وكأنّه يستنطقُ الرجل لكنّ هذا الأخير خرست جوارحه. ثمّ أردف قائلا:

ـ يا ولدي.

وأجاب الرجل بانتباه شديد: نعم أيّها الحكيم!

- يا ولدي إن اللّه وضع في الأرض كل جمال، لكن إن لم تستطع رؤيته في نفسك، وفي قريتك وراء ذلك الجبل، وفي طريقك إليّ، لن تتمكّن من رؤيته في أيّ مكان.

الجمال في الجبل، في النهر، في جلسة حول نار مستعرة، في ليلة باردة تحت سماء تستضيف القمر.

الجمال في رحلة على زورق يمخر النهر ويأخذك في جولة في أحضان الغابة.

الجمال في الحديقة التي لم تلاحظها وفي مجسمات الأقزام التي تتناثر حولها، وفي حساء شهيّ من خُضَرِ الخريف.

الجمال في الشهب التي تخترق السماء بأنوار وضياء.

الجمال في المهرجان، في لعبة يشارك فيها العرسان، وفي مائدة مرصعة بالألوان.

الجمال في الحيوان. في هذا القطّ الذي مَزَجت فيه الطبيعة من أوصاف الألفة والجمال والهيبة. الجمال في فراشة اقتربت منك لتزهو بجناحيها، فسحقتها بين يديك.

يا ولدي عليك أن تعي أنّ الكون يتحدّث لغة الجمال فإذا استمعت إليه منصتا لم تحتج إلى حكيم.

طائر مهاجر

التقى طائرا سُنونو في خمرة الأصيل عند ضفاف وادي النيل.

قال طائر لصاحبه بعد أن حطّ: "ما تحكي في هذا الشتاء الدافئ بعد هذا السفر الطويل؟"

قال: لقد شهدت الظواهر وصادفتُ الأحداث حين ولادتها ورأيت التاريخ يُكتب.

فسأل الطائر الثاني :

- لكنّي أراك حزينا ، أما شَفَتك مياه النيل ودفئه وطيب العيش على ضفافه؟!

فأجاب الأول: بلى. إلّا أنّني في رحلتي من قيظ البرد والصقيع إلى حرارة السهول والأنهار في الجنوب، أرى العوالم فأشهد سلمها وحَربَها ، جميلها وقبيحها. أرى القمر مواسم في السماء، وأدنو من الأرض فأشهد استيقاظ الزهور في الخمائل.

في رحلتي، شهدت قساوة الإنسان مع أخيه ومع الطبيعة، فعادت الطبيعة على ظَلفها وشدّتها ألين منه وأعطف!

قال الثاني:

صحيح! تعجّبتُ لأمر هذا المخلوق. عَاد لا ينظر إلى السماء. لا يعبأ بأمرها، لا يحفل بما يعتمل في أحضانها. وما رأيت إنسانا سامق النظر إلى قبّة السّماء إلّا إذا كان عاشقا أو صيّادا يستبيح سربنا.

قال طائر السنونو الأوّل:

إذن فهمتَ سبب اندهاشي! ما أذهلني ليس فراقُ إخواني بطلقة بندقية أو لنُفُوقٍ جرّاءَ التعب ومخاطر الهجرة...لا! فهذه من نوائب الدهر ومما انطوت عليه الحياة منذ الأزل. لكن أذهلني ظلم الإنسان.

عجيب أمره! يعلم أنّ الأرض وكلّ ما فيها مسخّر له فلا يشكر اللّه!

ويعرف أن كلّ شيء فيها يؤدي دوره ويحافظ على توازن الحياة، لتتوفّر له ظروف العيش. ورغم ذلك هو لا يعترف! يُدركُ مغزى الفصول والمواسم. ومع ذلك لا يرضى بالطبيعة صديقة!

وقد هالني أشدّ الهول، وحزّ في نفسي ما تعيشه أقوام من جور وبؤس!

فقال الطائر الثاني مشفقا على صديقه:

- ماذا رأيت؟ أخبرني!

- رأيت فلسطينيا ينظر إليّ، فقرأت في نظرته الحزينة رغبة في أن يصير مثلي. أراد أن يتحوّل من كائن بشري مُكَرّم، إلى طائر مهاجر حرّ. قرأت في عينيه عبارات وأقوالا :

"يا ليتني كنتُ نسرا يحلّق في الأعالي، أو نورسا فرحا لا يبالي..

يا ليتني كنت مثلك طائرَ سُنونو سعيد ، أو بلبلا يشدو بالأناشيد..

أو حماما زاجلا يحمل رسائل المحبِّ الوالهِ، أو يمامة تزهو بريشها الزاهِي..

أريد فقط أن أطير..أن أغدو حرّا لا يحاصرني عدوّ ولا صديق..

ثمّ أخفض رأسه، اتّكأ هنيهة على شجرة ثمّ رفع رأسه ولمحتُ في عينيه بريقا وقرأت فيهما كلاما آخر:

"لا..سأصمد كشجرة زيتون لأعيش قروناً في أرضي، وأتمنّى أن يصير مغتصبي طيرا..يهاجر..و لا يعود..."

السحابة والتراب

ذات مرّة كان هناك فلّاح اسمه أحمد يعمل مع ابنه زكريا في الزراعة. يخدم الأرض المعطاءة التي لم تحرمه يوما من خيراتها. وقد كانت أسرته تنتفع من محاصيل الخضر والفواكه والحبوب، والمواشي من الغنم والبقر التي تتغذّى ممّا تسخو به الأرض.

وكان الفلّاح ممتنّا شاكرا لله وللأرض التي سخّرها لخدمته. وفي سبيل ردّ الجميل لا تراه إلّا معتنيا بها. يقتلع الحشائش الضارّة، يحرث ويبذر ويستخدم السماد لتبقى الأرض غنيّةً خِصبة حمراء تقدّم أفضل المحاصيل وأجودها.

وكان زكريا فتى يافعا يمتلئ قوّة ونشاطاً، وقد اشتدّ عوده وأحسّ بالحياة تداعب طموحه وتلاعب خياله، وبدأت عيناه ترغبان عن رؤية الأرض وحدها، وراحت تجوب الآفاق. يتطلّع في صفحة السماء، ويهيم بفكره في كلّ اتّجاه.

ذات يوم، وبعدما أكمل هو وأبوه وبعض القرويين جمع محصول البصل، والذي كان وافراً يملأ نفس الفلّاح وابنه غبطة وسرورا

بجهودهما التي آتت أُكلها ولم تذهب سدى...و بعدما أتمّا أعمال ذلك اليوم الشاقّ، جلسا تحت شجرة سرو.

لقد كان أحمد يتنعّم بمنظر حقله. بعض الماشية ترعى أمامه، حصان أسود جميل مربوط غير بعيد عنه، وبقرتان تجولان. تأكلان من هنا وهناك لا ترفعان رأسيهما، وقد كانت ضروعهما ممتلئة بالحليب. كان كلّ هذا جنّته الرغيدة التي يتنعّم فيها آناء الليل وأطراف النّهار.

أمّا زكريا فكان يتكئ على الشجرة ويتطلّع في صفحة السماء، وإذ هو كذلك إذ مرّت طائرة قَطعَ أزيزُها صمت الحقول.

وعندما توارت وراء السحب الكثيفة وتلاشى صوتها، وعاد صوت خوار البقر وثغاء الغنم ليعمّ الأجواء من جديد، نظر زكريا لأبيه بعينٍ تقدحُ شَرراً وقال بصوت مضطرب جديد لم يُسمع له من قبل:

- لماذا لا أكون طيّارا يا أبي؟! إنّ الزراعة لم تعد تعنيني.. لم تعد تشفي غليلي.. أُحسُّ نفسي وضيعا وكلّ النّاس غيري أشراف!

ثمّ سكت للحظات، كان خلالها يُشيح بناظريه إلى الحقول المحاذية، ثمّ قال:

ـ انظر يا أبي إلى أصحاب الحقول المجاورة..كلّهم ذهبوا! تركوا الريف وانتقلوا للمدينة حيث يوجد كلّ شيء. لم لا نفعل مثلهم؟ أريد أن أكون ذا شأنٍ بين النّاس، وأن أشتريَ سيّارةً فاخرة وأن أعمل عملاً يشارُ إليه بالبنان وأن يقال لي: هذا فلان..حقّا إنسان ناجح.

لم يُثِر هذا الكلام حفيظة الفلّاح الذي استمع لولده بطيبِ خاطر. لقد كان ينتظر حلول هذا الحين ويتوخّاه. هذا العمر الذي تتفتّح فيه نفس ابنه على العالم، فيسعى لاكتشافه وتحقيق ذاته.

ثمّ ارتكز على عصاه وقام من مجلسه وطلب من زكريا أن يرافقه في مِشيةٍ بين الحقول. كان النهار يشرف على الانقضاء، واللّيلُ يُوشكُ أن يرخي سدوله والنسائم قد انطلقت في الأرجاء تلامس الشجر وتراقص القصب فيتمايل على موسيقى الأصيل.

قال أحمد لابنه:

"ـ سأحكي لك حكايةً قد جرت على الألسن. لقد نظرت سحابة إلى الأرض ورأت الحياة تكتنفها والإنسان يدبّ فوقها، والأشجار والأزهار تخرج منها. وكأنّ التراب ساحرٌ يُخرج من جعبته كائناتٍ

تختلف ألوانها وأشكالها. شاهدت السحابةُ الماء يتفجّر من الأرض عيونا ويتدفّق في الأنهار والجداول والوديان.

شاهَدَت هذا كلّ يوم من سمائها، وحَنَقَت لذلك وامتلأت حسدا وغيضا من التراب الذي يصنع الحياة. وقالت:" سأقترب من الأرض، سأحتضنُ الحياة. لماذا أكتفي برمي المطر من هذا العلوّ؟ ولماذا أضَعُ الثلوج على تلك الجبال كما توضع الأوسمة، ثمّ أمضي ولا أحد يدري ما أتحمّله وما أعانيه؟ مَن يُشفق لوحدتي؟ من يقترب منّي ويُجالسني..من يشكر صنيعي..الكلّ يردّ الفضل للتراب..للشمس، لكن من يشكر الغيوم؟!

وما كان من السحابة إلّا أن دنت من الأرض فصارت ضبابا، فأصبح النظر عسيرا، وتوقّفت السيّارات عن المسير، وحصلت الحوادث. وعندما نظرت السحابة إلى ما أحدثته من بلاء عادت إلى عليائها وارتفعت من جديد.

أمّا التراب فكان ينظر إلى السماء ويشكو ظلم البشر وغطرستهم وبطشهم وجبروتهم. فَكَمْ أعطاهم التراب من خيرات وقابله البشر بالحرمان. وراح يقول:"إنّ الإنسان يمشي فوقي ويبصُق عليَّ. يعثو فسادا وهو حيّ يُرزق، وإذا مات ودُفن في أعطافي، تحوّلتُ من حوله إلى قطعة تفوح بالموت والعفن".

وقال وهو ينظر إلى السماء، كمن يخاطب القدر ويلعن حظّه التعس في هذه الحياة:

- لماذا يا إلهي جعلتني مستودعا للديدان وموطئا للبشر؟ أريد أن أعلو وأبتعد حتّى أصير في علوّ السماء. في كبرياء السحاب.

فما كان منه إلّا أن استغل هبوب الرياح وطار في السماء، فصار زوبعة من الغبار والرمل. ولمّا رأى النّاسُ الهواءَ قد تلوّث والسماء قد اختلطت بالأرض، أوصدوا أبوابهم وأقفلوا نوافذهم. وبَقَوْا في ديارهم حتّى ضجروا.

رأى التراب ما آلت إليه الأوضاع، وشاهد ما ألحقه من خراب، فنزل إلى الأرض واستقرّ بها.

ومنذ ذلك اليوم، عَرَفَت السَّحابة والتراب قَدْرَهُما، ورضِيا بأَدَاءِ دورهما، لكن بين الحين والحين تشهدُ الحياة محاولاتٍ لسحاب وأتربة تتمرّد لكن سرعان ما تعود إلى أصلها."

عندما أكمل الفلّاح حكايته كانت الشمس قد غادرت الحقول. نظر زكريا إلى أبيه وقد هدأ جموحه وقال له:

" يا أبي..سأكون كما تريدني.. فلاحاً وسأعمل في خدمة الأرض بشرف وسآكل من عرق جبيني. وسيأتينا النّاس من كل حدب وصوب يأخذون ثمرات الطبيعة..سأواصل الحياة السعيدة الهادئة التي أعيشها منذُ خرجت إلى الحياة.. لكنّي ككلّ إنسان سأتطلّع إلى ما لا أملك وسأرغب وأطمح وأحلم. وهل تصبو الأحلام إلى ما يملك الحالمون؟!".

ثمّ ذهب يجري يسابق النسيم، وهو يميل إلى الأرض يقطف من النُوَّار، ثمّ أَدخل الماشية وعلى فمه ابتسامة تبشّر بخير.

كلب مخلص

ذات يوم كان هناك كلب رعي لا يراه النّاس إلّا وهو يطوف حول الغنم. يسوقها إلى منتهاها، إلى ذلك المرج الجميل، حيث تجد الشمس والكلأ والماء.

وما كان على الراعي إلّا أن درّبه وهو جرو صغير، إلى أن استطاع تحمّل أعباء الحراسة لوحده، فصار ينبح على الخراف وهو لا يزال صغيرا، حتّى أصبحت مذعورة منه، تهابه أكثر ممّا تهاب الراعي وتضرب له ألف حساب.

لقد كان ذيله المعقوف المنتصب وكأنّه رادار يتلقّى إشارات المروج التي تناديه فتخبره بالمكان الأفضل حتّى صار بغريزته وذكائه سيّد المرعى.

وكان الكلب يفتخر بدوره الذي يؤديه وبالأهمّية التي يوليها له الراعي. فقد كان يصطحبه ولا يأخذ معه تلك الكلاب الصغيرة التي لا تفارق المنزل وتمضي وقتها وهي تلعق أذيالها وتتمطّط تحت الشمس، وتتنابح على الأطفال الذين يقذفونها بالحجارة استهزاءً ولعباً...

أمّا كلب الرعي، فكان يعتبر نفسه محظوظا، يخرج على أثر صاحبه كلّ صباح باكرا وهو يدقّ الأرض برجليه فخرا! يقود الغنم، وهو يقفز ككلّ صباح فوق الندى الذي يغطّي الأوراق والصقيع الذي يفترش التراب في صباح ذلك اليوم الشتوي البارد.

في الشتاء تزيد مسؤولية الكلب وهذا يعجبه! فلا تراه إلّا نشِطا، لأنّه سيتَسَلَّم زمام الأمور وسيتولّى هو قيادة الجوق. تجده يصرخ هنا، ليردّ النعجة المتهوّرة إلى الصفّ، أو يصفِّرَ هناك ليفرّق بين كبشين يتناطحان، أو تجده يعوي وكأنّه ذئب وهو يطلّ من أعلى الأخدود، ليثبت وجوده وليبلِّغ الطبيعة بعظمته، وليَسْمَعَه الرّاعي الذي يتصاعد البخار من فمه، مرتكزاً على عصاه وهو يمدّ يده إلى النّار المتأججة التي يُشعلها اتّقاء برد الجبل الذي قد اكتست قمّته بالثلوج.

يمضي الكلب برفقة سيّده اليوم في المرعى، وعندما يحين وقت العصر ـ الذي تعوّد فيه الراعي على المغادرة ليرتاح ويتناول الطعام في بيته ـ ينهض الراعي من مكانه ويصفّر للكلب فيهرع لجمع الماشية للعودة. فتراه يعود للوراء ليفحص المتأخرين، فيحثّهم على السير الحثيث، وكأنّه قائد سريّة عسكرية يبعث الحماس في

جنوده!... هكذا يفعل هذا الكلب المخلص كي لا يتأخّر صاحبه عن ميعاد العودة.

وعندما يصل الجميع وتدخل الماشية إلى الزريبة ـ تحت إشراف الكلب دائما ـ وتنتهي مهمّته، يتوجّه إلى وِجاره الذي بُني لأجله خصّيصا بمحاذاة البيت، ليرتاح بفخر بعد يوم شاقّ.

واستمرّ على هذه الحال أعواماً عديدة إلى أن بدأ يطعن في السنّ ويخفت نشاطه ويأفل البريق في عينيه. ورغم ذلك لم يرضَ بترك الراعي. واعتبر مهمّته في قيادة الغنم أمراً مقدّسا لا يجب التفريط فيه، على أيّ حال من الأحوال.

وواصل الكلب مهمّته في مرافقة الراعي حتّى جاء ذلك اليوم الربيعي الذي تلوّنت فيه المروج وعجّت فيه السّماء بصيحات النّسور التي تُنبئ بالخطر فلقد كانت هذه الطيور الجامحة لا تأبه للكلب ولا للراعي ولا تخيفها عصا أو نباح.

وراحت تحوم حول الماشية وتصيح صيحات مميتة ومدوّية يُسمَعُ لها صدًى مخيف يتردّد في الخلاء. وفي لحظة من اللحظات هوى النّسر بسرعة خاطفة على حَمَلٍ وديع قد ابتعد قليلا نحو المنحدر وقد تعذّر على الكلب رؤيته ليعيده إلى القطيع...أو لعلّه لم يكن يستطيع فعل

شيء أمام هذا الطائر الجارح الذي طار بالحَمَل إلى عشّه الذي يقع في مكان ما وسط الجبل.

لقد كانت سابقةً لم تحدث للكلب في عنفوان شبابه. لقد أدهشه ما شهد لتوِّه، فقرّر بدون تردّد أن يصعد الجبل. وهكذا فَعَل رغم وعورة المرتفع. أمّا الراعي فتسمّرت عيناه في الجبل وقد صَعقه فُقدان الحَمَل.

وظلّ لمدّة وهو مشدود إلى الكلب، ينتظر نزوله، حتّى الغنم تعلّقت أعينها إلى فوق وهي تنتظر قائدها الذي لطالما أخذها إلى ساحات الكلأ والعشب..و جاء وقت العصر هذا الوقت الذي حَرَص الكلب من قبل، أَلّا يتعدّاه. وفات على ذلك الوقت المقدّس دقائق ولم يكن الكلب في الموعد!! لقد كان حينها في مكان شاهق بين الصخور يكابد مشقّة الصعود، وهو ينظر بين الفينة والفينة أسِفاً نحو الراعي والغنم، ومشاعر النّدم على تضييع الحمل، تقطّع أوصاله وتخلع فؤاده. قال لنفسه: الذنب ذنبي! أنا الذي لم يتفطّن لابتعاد الحَمَل... وراح يعاتب نفسه محمّلا إيّاها مسؤولية ما جرى.

ثمّ رأى القطيعَ وهو يغادرُ المرعى، فتساءل:"من سيقود الغنم إلى الزريبة؟" ولم يتساءل: "كيف تركوني وذهبوا؟!"

ومرّت أيّام وليالٍ. وفي ليلة ما ، شَاهدتْ هوامُّ اللّيل كلباً وهو يجرّ أذيال الخيبة بخطى وئيدة تَعِبة وهو يسحب جثّة حَمَلٍ. وقد تهشّمت، لكنّه أبى ألا يعود من دونها! لقد تمكّن من انتزاعها من عُشِّ النِّسر انتزاعاً!..و وصل أخيرا إلى القرية وتوجّه نحو الزريبة ووضع الحمل أمامها وذهب إلى وِجاره الذي لم يجده شاغرا!

بل صار مُلك كلب آخر يشبهه! نسخةٌ طبق الأصل منه لكنّها أكثر شباباً! مثلما كان هو منذ أعوام..عندما كان يفاخِر بنشاطه نسيمَ الروابي العليل.. ونضارته تناظر غضاضة الأوراق الطرية... أمّا اليوم فقطار الحياة يودِّع الكلب المسكين!

في ذلك الوقت الذي تهجع فيه الكائنات، حتّى القمر في تلك الليلة كان نائماً وراء السحب الكثيفة التي أخفت كلّ شيء، ذهب الكلب يواري ما بَقِيَ من كرامته، في ذلك الأخدود الذي ألِف أن يصرُخَ فيه بفخر واعتزاز...

في تلك الليلة نام الكلب الوفيّ وحيدا في الأخدود ينتظر الصباح عَلَّه يسترجع سرِيّته، بينما ينام الراعي ملء الجفون مع الكلاب الصغيرة في البيت، وتنام الماشية في زريبتها وينام في الوِجار الكلب الجديد.

وداعا للظلام

لم يكن المنظر جميلا من داخل الكهف. كان الظلام موحشا وكان إحساسي رهيبا لأنني فقدت الطريق ولأنني وحدي ولأن قدراتي استحالت إلى عجز. رأيت الوطاويط من حولي وفوقي من خلال شعاع يتسلل من مكان بعيد، وسمعتها وهي تصدر أصواتا زادتني خوفا وثقة بضعفي. جلستُ في مكاني أتأمل خوفي، وقبعت في حيز السكون والظلام والبرد والرطوبة أفكر في تفاصيل موتي واندثاري تحت تلك الظروف التي لا تشجع الحياة. ثم وردتني خاطرة فقلت: حتما هذا الضوء يأتي من مكان ما، من فتحة ما، من مخرج ما!

ثم حضرني سؤال غريب قلب كياني:" كيف وصلتُ إلى هنا؟ كيف وصلتُ إلى هذه النقطة من الكهف، ما الذي أتى بي هنا؟" ما الغرض من قدومي إلى هذا المكان الذي لا يطمئن إليه إنسان؟".

أدركت حينها أنه علي الخروج وأن وجودي في الكهف خطأ، وقعت فيه ربما عن قصد أو عن غير قصد، ربما أتيت إلى هنا بغية في الاستكشاف أو التعلم أو غيرها، لكنني أدركت الآن أنه علي الخروج.

تبعتُ النور الذي ظل ينبعث من مكان ما. وكان ينعكس على الأرض الرطبة ثم يرتد على النوازل التي تهبط من سقف الكهف ثم يستقر في عيني التي ألفت الظلام حتى أن النور صار غريبا عنها هو أيضا. لولا أن نفسي التي تتوق إلى الخروج تبعت النور غير آبهة بالخفافيش، ولا بأشباح الظلام والخوف، ولا بجسدي الذي هزل وضَعُف وكاد يتلاشى تحت أسوار الكهف. أحسست هناك أنّ الأشياء تنسى، أن الانسان هناك يتوارى عن الحياة. خالجني شعور أدنى من الموت، هو شعور بالوجود بلا حياة...

لكن ما إن استجمعت قوّتي الفكرية، صرت أمشي وتحدوني قوةٌ مصدرها من إحساسي بالحياة، من شعوري بضرورة الوجود، من إرادتي العازمة للخروج...

تبعت النور لساعات، وكان يبدو أحيانا كالسراب في الصحراء، لا يؤدي إلى مخرج ولا ينتهي إلى نهاية... ثم يدلف الليل فينقطع البصيص، وتبدأ سمفونيات الوطاويط تعزف موسيقى الرعب، وكانت تجتاحني تلك الترددات، وكان هزالي يزيدني ضعفا، غير أنني تمالكت نفسي، فصرت أقول: أنا سيد مصيري، أنا قائد روحي... و أكررها، إلى أن أغفو ثم يأتي الصباح، فأعود إلى رحلة

الخروج من الكهف، رحلة التحرر من الخوف، رحلة تكسير حواجز العجز والذل.

"سأخرج، سألتقي بالناس، سأشم الهواء، سأجري مع الضباء، سأسابق الريح، سأقابل الحياة. الكهف ليس مكان الأحياء".

واصلت رحلتي إلى النور لأيام .. حتى صار أنوارا. كلما اقتربت زادت ثقتي، صرت أكثر يقينا بأنني سأجد المخرج، وسيأتي الفرج قريبا. كلما اقتربتُ عادت إليّ أماراتٌ من حياتي السابقة وقَدِمت إليّ إشارات من الحياة.

قبيل المخرج استقبلتني الأنوار بدفء، سمعتُ نداءات الطبيعة، سمعت أصوات الكائنات وهي تلبي نداء الحياة.

أنا الآن على بعد أمتار من المخرج، تذكرت أن لي حياةً أود عيشَها، أدركت ما فَوتُّه من جمال، لكنني الآن أشد حبا للنور، والحياة والطبيعة والهواء... سأواصل التقدم ببطء لكي يمتدّ شوقي للنور للحظات.. ولكي أودع الظلام.

جائزة استحقاق الحياة

في زمن مضى كانت هناك ستّ مملكات متجاورة. وقد أعلنت إحداها وهي مملكة "العاديين" مسابقة لنيل جائزة "استحقاق الحياة" في طبعتها الأولى.

وانتشر الخبر وذاع صيته في المملكات الستّ وسمع به الداني والقاصي. وراحت كل مملكة تُجري تصفيات لكي تقدّم لهذه المسابقة أفضل مواطنيها وأجدرهم بشرف المشاركة.

وبعد إجراء التصفيات خَلُصَت النتائج النهائية إلى خمسة مؤهلين بالإضافة لمؤهّل من المملكة المنظمة للمسابقة.

قد أبدَى المؤهلون الستّ استعدادا في مجالات الاختبار كلّها وأثبتوا جاهزيتهم للمسابقة.

وعندما حان موعد الامتحان، التحق كل المتسابقين بمملكة "العادِيين". كان كلّ منهم يحدوه حماس وقّاد ويعتمل في نفسه فضول جارف.

كانت ميادين المسابقة مُبهمة وشروطها مجهولة وظروفها لغز من الألغاز، فالإعلان لم يُحدِّد أيّ تفصيل عن المسابقة، ماعدا أن تجود كلُّ مملكة بخِيرة مواطنيها لِمُعتركِ المنافسة.

لقد كانت كل مملكة أشبه بجزيرة معزولة لا تتدخل إحداها في شؤون الأخرى، إلّا فيما يتعلّق بتهنئةٍ رسمية تؤدّيها مملكة لأخرى في مناسبة ما.

ورغم ذلك الانغلاق فقد كانت الملكات الستّ تتوق لخرق العزلة كي تنعم شعوبها بسلام الجوار وامتياز السياحة واللقاء بين مواطنيها.

غير أنّ لكل مملكة خصائصها وطريقتها في فعل الأشياء وعقد الصداقات فكانت لها عادات وأعراف مختلفة لاختلاف القيم بين شعوبها.

ولم تبادر أيّ منها لأزمنة عديدة، منذ كانت هذه الملكات مقاطعات تنضوي تحت لِواءِ حكم واحد...إلى أن تجرّأت مملكة "العادِيين" وعقدت العزم للمِّ الشمل بين أوصال هذه المنطقة الممزّقة.

وفي الصباح الموعود لإجراء المسابقة، تقدّم ستّة مرشحين للتنافس لنيل شرف الفوز وتمثيل مَلِكِه أحسن تمثيل.

وصل مثابر من مملكة "المثابرين" باكرا، قبل الموعد بساعة، كان يلبس بذلةً بربطة عنق وكانت علامات الجديّة تعلو وجهه.

مملكة "المثابرين" معروفة بشعبها الجديّ والذي يقدّس العمل والفعالية والذي لا يرضى بإضاعة الوقت.

لم يُفتح باب سراي مملكة "العاديين" بعد، ليستقبل المؤهلين الستّ. قلّما يدخل أحدٌ إلى هذا المبنى الذي يمثّل العرش والملك.

ونحو الثامنة صباحا فتح الحرس الباب الضخم، وخرج حاجبٌ يحمل لافتة كبيرة تحمل إعلان المسابقة وعلّقها في الخارج ثمّ أغلق البوابة. وبدأ النَّاس يدنون من الإعلان ليقرؤوا ما كتب عليه. فقال أحدهم للآخر: ما بك مشدوها يا صاحبي إنّ هذا أمر عادي. فأجابه صاحبه: لم يكن كذلك قبل ثواني أمّا الآن فهو عادي!

ولم تمضِ دقائق حتّى وَصَلَ أربعةُ شبّان يلبس كل منهم زيّا خاصا بمنطقته. ويحمل تنويها يسمح له بالدخول.

خرج حاجب مع بعض الحرس عند باب السراي ونادى على المرشّحين. فتقَدَّم مثابر أوّلا وهو حريص على الولوج في الوقت الموعود وقدّم للحاجب وثيقة تفيد بهويته، فأخذها الحاجب دون أن يطّلع عليها.

ثمّ تقدّم لطيف من مملكة "اللطفاء" وسلّم على الحاجب والحراس ومنافسيه، ثمّ قدّم التنويه وتراجع بظُرف ليترك المكان لمنافس آخر بعدما قال له: تفضّل يا أخي.

وكما هو ظاهر من خصال لطيف. فقد كان شعب مملكة "اللطفاء" رحيما، ظريفا، خبيرا بعبارات الألفة والمودّة. فنادرا ما تجد فيهم، مسكينا يعارك الحرمان، أو يتيما يجابه الوجع والجوع، أو شيخا يعاني الوحدة والضعف. وكان الكلّ في سبيل الواحد والواحد في سبيل الكلّ.

وتقدّم مثقّف الذي يمثّل مملكة "المثقفين" بخطى واثقة. كانت تبدو على وجهه أمارات الذكاء، وعيناه تقدحان بنيران حبّ الاستطلاع والفضول.

شعبُ مَملكَةِ "المثقفين" مشهور بحبِّه للقراءة وشَغَفِه بالمعرفة. مُواطنوه يقدّسون العلم، ويسعون في سبيل اقتنائه واقتناصه، وتصنيف فروعه. فكَثرت لديهم نوادي الكتابة والمطالعة، والمكتبات الضخمة. ونَبَغ الأطفال وتميّزوا منذ نعومة أظفارهم بموهبة فذّة وفطنة نافذة.

وبعدما قدّم مثقّف للحاجب الوثيقة ابتعد وجلس تحت شجرة وأخرج كتابا يقرأه.

وتقدّم عادل من مملكة "العادلين". وهي معروفة بشعبها المنظّم والذي يؤثر التضحية بالذّات على اختراق القانون. لديهم في كلّ مجال قواعد صارمة تنظّم حياتهم، وتؤطّر مجالات عيشهم، وهم يولونها أيَّما اهتمام. فلا تجد في هذه المملكة، سارقا أو قاتلا، أو مغتصبا لِحقِّ أخيه. وكان الذين يفعلون ذلك - وهم قلّة نادرة - يلقَوْن جزاءً شديداً.

قَدَّم عادل وثيقته، وقال للحاجب: ما هي قوانين المسابقة؟ هل من منشور يوضّح القواعد المتّبعة لكي نتعرّف عليها؟

وَجَم الحاجب ونظر إليه شزرا واكتفى باستلام الوثيقة ونادى على مرشّح آخر.

كان فنّان القادم من مملكة "الفنّانين" يتمعّن في جمال السراي وبروجه وقبّته الخضراء الكبيرة المزركشة التي تعلو القصر. وظلّ يجول بخاطره حتّى هزّه وَقعُ النداء.

عُرف شعب مملكة "الفنّانين" بحسّه المرهف، ومشاعره العميقة وحبّه للجمال في كلّ صوره، وعشقه للطبيعة. وكان لهم في الفنّ

ضروب وصنوف وألوان. حتّى اخترعوا من الفنون العجيب منها ، ومن طرائق التعبير عن خوالج النّفس الشيء الغريب. فلم يكن مُواطنٌ بينهم إلّا ويتميّز بملاحظة دقيقة، وبنَفْسٍ تتوق للحُسن والبَديع من المناظر والأشكال.

اقترب فنّان من باب السراي وهو يشدو ويردّد أنغاما جميلة وبعدما قدّم تنويهه عاد يُدَنْدِن مثلما أتى.

مضت عشرون دقيقة بعد الثامنة والمتسابق عادي لم يأت بعد. ثمّ أشار الحاجب للحرس بفتح الأبواب على مصراعيها ليدخل المتسابقون.

وَلَج المرشّحون الخمسة بوابة السراي الواسع. اقترب كل منهم من الآخر وراحوا يتهامسون حول ما يلتبس الحدث الغامض، لكن لم تَخلُص تلك الهمهمة المبهمة إلى نتيجة.

مَشَوا نحو باب القصر، عبر ممرٍّ تصطفّ على جانبيه الأشجار الطويلة الوارفة الظلال. نظر عادل وراءه فرأى الحاجب يبتسم ابتسامة شريرة تعكس مكيدة، ويتّجه في منحى آخر بينما يلوّح بوثائقهم كمروحة، بعدما عبث بها وطواها.

اقتادهم أحد الحرس إلى قاعة خلف السراي ذات لونٍ فاقعٍ لا يَسرُّ النَاظرِين. وقد عُلِّقت فوق الجدران لوحاتٌ غريبة. كما كانت تَرِد أصواتٌ صاخبةٌ من مكان غير بعيد، حيث توجد ورشةٌ لإصلاحِ أثاثِ السراي.

عندما دخلوا القاعة وجدوا شابّا جالسا على طاولة. يتحدّث بكل راحة مع رجل يلبس زيّا رسميا، ويضع على صدره بطاقة مهنية، كُتب عليها: "منظِّم". وخمّن جميعهم هويّة الشاب. لقد كان عادي. لكن ماذا يفعل مع المنظّم؟!

حاول فنّان تنظيم بعض الطاولات وفتح بعض الستائر بغية الإنارة، ورؤية أشجار الحديقة التي تظهر من نوافذ القاعة، كي تخفف عليه مظهر الجدران. لكنّ الضوء زاد الطين بلّة، وضاعف من انعكاس اللون وشدّة تركيزه.

جلس المتسابقون ولم يلتفت إليهم المنظّم الذي ظلّ يتحدّث مع عادي. واستمرّ ذلك الوضع الغريب لربع ساعة ممّا جعل مثابر يستشيط غضبا، لضياع الوقت.

أمّا عادل فصار يشكّك في المسابقة، فضَحْكَةُ الحاجب وحديث المنظّم مع عادي تؤكّد فرضية المكيدة أو المهزلة.

أمّا فنّان فقد كان مشوّش الذهن، ومن حين لآخر يُغلِق عينيه كي لا يرى الألوان البشعة التي أمامه.

أمّا لطيف فقد كان جالسا ينتظر، وقد جمع يديه فوق الطاولة ورسم ابتسامة صغيرة على وجهه.

وكان مثقّف واقفا أمام النافذة يقرأ من كتابه بينما هو ينتظر.

ونحو الساعة التاسعة دخل رجل يلبس زيّا رسميا، ويضع بطاقة مهنية كُتِب عليها: "مُشرف".

تنفّس المؤهّلون الصعداء وارتاحوا أخيرا لقدوم المشرف الذي دخل بلا سلام ولا كلام، وتوجّه مباشرة نحو عادي، وابتسم في وجهه ثمّ راح يقسّم أوراق الأسئلة وأوراقا فارغة للإجابة.

كان حينها مثقّف عند النافذة في ركن القاعة ولم يلحظ دخول المشرف، فصرخ هذا الأخير في وجهه، فهرع إلى طاولته وجلس. وبَقيَ لطيف مندهشاً، لهذه القسوة والغلظة غير المبررة.

استلم كلّ مؤهّل موضوع الامتحان الذي يحتوي معلومات والمطلوب هو تحديد صحّتها أو خطئها.

كان عادل متوجّسا تخامره الشكوك من أوّل وهلة ولم يكن يبدو على حالته الطبيعية. ترك ورقة الأسئلة وراح يتطلّع في المنظّم الذي كان يتحدّث مع عادي على مرأى من المشرف، وبدا له الأمر غريبا ولا يمتّ بصلة لقواعد الامتحانات. ولم يكفّ عن التحديق حتّى توقّف المنظّم عن الكلام.

أمّا مثقّف فقد كان مقطّبا حاجبيه تومئ ملامح وجهه إلى الاستغراب الشديد لِما يقرأ على ورقة الأسئلة. وكثيرا ما كان يرفع رأسه وينظر نحو المشرف أو المنظّم ويهمُّ بالكلام ثمّ يتردّد ويحجم عن ذلك.

وظلّ كذلك بضع لحظات، يعزم على الكلام ثمّ يتراجع. وفي لحظة ما استجمع قواه ونادى على المشرف وقال له: "يا سيّدي، نصف هذه المعلومات خاطئ".

فاستدار زملاؤه الذين كانوا يصارعون الأسئلة وقد تمكّنوا من بعضها وضربوا في الأخرى خبط عشواء.

فامتعض المشرف ونظر الى مثقّف شزرا وصرخ في وجهه: عفوا، ماذا قلت؟

فتردّد مثقّف للحظة ثمّ قال وفي صوته حشرجة: "يا سيّدي.. بعض هذه المعلومات لا أساس لها من الصحة". فردّ عليه المشرف:

- أي معلومات تقصد؟

- هي بعض المعلومات المغلوطة في تاريخ المملكات الستّ واقتصادها ومعلومات حول شخصياتها البارزة...

وقبل أن يستطرد قاطعه المشرف وخاطبه بلهجة استهجان واستنكار ثمّ طلب من الجميع الصمت ومواصلة الامتحان.

أمّا لطيف فقد رأى بأمّ عينيه شتّى مظاهر المعاملة السيئة. ولم يستطع مواصلة الامتحان فوضع الورقة وجمع ذراعيه وبقي في مكانه ينتظر نهاية الامتحان دون أن يتحرّك أو ينبس ببنت شفة.

وفي لحظة ما من الامتحان التمس عادي من المنظّم أن يقترب منه ثمّ همس كلاهما للآخر بكلام مُبهم فأوجس عادل في نفسه استياءً وراودته الشكوك، واغتاظ لذلك المنظر الذي ينمّ عن قلة احترام، واستمرّ كلام المنظّم مع عادي لفترة وهما يعاينان ورقة الأسئلة.

لقد كان فنّان يعاني من الضجيج الذي منعه من التركيز فضلا عن الألوان الفاقعة وصراخ المشرف...كل مصادر التشويش هذه جعلت حسّه المرهف يشتغل بغير الامتحان وجعلت تركيزه يتشتّت.

أمّا مثابر فظلّ يعمل. ويزوّق وينمّق ولم يكن يضع اعتبارا للأخطاء بل حاول الإجابة حسب معرفته. وعكف على ورقته يقرؤها ويتأكد من محتواها مرّات عديدة حتّى صارت جاهزة للتسليم. وعندما نادى المنظّم معلنا انتهاء الوقت، سلّم المؤهلون أوراق الإجابة وخرجوا لينتظروا في الرواق. أمّا عادي فبقي في مكانه ولم يغادر القاعة إلّا بعد خمس دقائق ووجهه ينمّ عن الرضا والسرور.

أوصِدت القاعة وذهب عادي وقرّر الآخرون البقاء والانتظار. وأثناء ذلك راح المتسابقون الخمسة يتناقشون. بدأ مثقّف بالحديث فقال لهم:

- لقد وجدت الأسئلة مثيرة للتساؤل والحيرة، فكلّها تتكلّم عن مملكة العاديين، وتتغنّى بتاريخها. والذي أثار حفيظتي هو كمّ الأخطاء الهائل. فهم يحرّفون الحقائق ويزيّفون الوقائع. فيُرجِعون الفضل لمملكتهم ويصفونها بأوصاف المجد ويلصقون العار بالممالك الأخرى فضلا عن غلطات أخرى في معلومات الثقافة العامة.

ثمّ تكلّم عادل وقال:

- لقد لاحظت منذ البداية الغرابة التي تحيط بالمسابقة، وخامرني شكّ وريبة حين رأيت الحاجب يضحك وراء ظهورنا ممّا جعلني أشكّ في أنّهم يبيّتون لنا المكيدة ويضمرون لنا ما لا نعلم.

وقال فنان: أتوق لمغادرة هذا المكان الفوضوي في أقرب الآجال، فذوقي يعاني وحاسّتي الفنيّة تَحتَضِر.

وقال مُثابر:

لقد ضقت ذرعا بهؤلاء، سأغادر الآن فالوقت من ذهب! وأنا رجل له أعماله ولست فارغ شغل.

و حاول لطيف التخفيف من معاناة زملائه فقال لهم:

- لا تأسفوا لما جرى. ستنتهي الأمور على ما يرام. فنحن المؤهلون المختارون ولا بدّ أن نكون قد أبلينا حسنا. لن تضيع جهودنا سدى، وسنجني ثمار ما بذلناه بطريقة أو بأخرى. أنا متأكد من ذلك.

هذا الكلام جعل التفاؤل يدبّ في نفوسهم. وتغيّر مجرى الحديث من القلق حيال الامتحان والمعاملة السيئة للمشرفين، إلى الحديث

حول بعضهم البعض. فتعرّف كل منهم على الآخر وراحوا يوطّدون وشائج الصداقة بينهم.

و لم يلبثوا كذلك حتّى أتى الحاجب برفقة عادي، وهو يحمل الجائزة.

ثمّ أخذهم إلى قاعة أخرى وجلس الجميع، ثمّ خطب فيهم الحاجب بعد بداية طويلة يحيّي فيها الملك. ثمّ قال :

- إنّ في هذه الحياة مشاكل كثيرة تحيط بنا من كل جانب وتجعل من العيش صعبة. وهذه الصعوبة تتطلّب مهارات للبقاء. ولهذا خصصنا "جائزة استحقاق الحياة" لمن هو خليق بها. وقبل أن أُعلن عن الفائز فأنا أودّ إعطاءكم أوراق إجابتكم. فأمّا مثقف فكانت نقطته متوسّطة وذلك لأنه أجاب بالخطأ على بعض المعلومات. وأمّا لطيف وفنان وعادل فتحصّلوا على نقطة تحت المعدّل. وأمّا مثابر فقد قام ساخطا واتّهمنا بالغشّ ولهذا فهو مقصى.

ثمّ أعلن عن الفائز وكان بطبيعة الحال : عادي الذي ظلّ هادئا لا يسوءه أمر ولا يحزبه من الأمر شيء.

وبعدما استلم جائزته، صعد إلى المنصة ليلقي كلمة فقال:

لقد شهدتم اليوم السبب الذي جعل مملكتنا هي أعظم مملكة فنحن لا نتبع أيّ نمط ولا نرضخ لأي قانون. نحاول أن ننزع من أنفسنا كل ما يضعفنا ونفعل أيّ شيء يقوّينا ويزيد من أسباب نجاحنا.

و قبل أن يتمّ كلامه خرج المتسابقون وبقي عادي فوق المنصة. وبعد أن غادروا السراي اجتمعوا خارجه ثمّ قرروا الذهاب معا. واقترح عليهم لطيف أن يكون أول اجتماع لهم في مملكة اللطفاء فهناك يلقَوْنَ استقبال الأمراء. وهكذا بدأت العلاقة بين المملكات الخمس تتحسّن وأواصر المحبّة تتوطّد بعدما أدركوا الخطر الداهم الذي يهدّدهم من مملكة لا تحترم ميثاقا ولا تعرف فضلا لأحد.

فاتّحدت المملكات وتبادلت المعارف والفنون والثقافات، وصارت إحداها تكمّل الأخرى. وبعد فترة شكّلت قوّة تكتمل فيها كلّ العناصر التي تؤهل أيّ دولة إلى النجاح وتجعلها تستحق الحياة بجدارة.

فهرس المحتويات

- إهداء.................................03
- مقدمة.................................05
- صيحات نورس.............................07
- باحث اجتماعي...........................12
- الحكيم والباحث عن الحقيقة................29
- طائر مهاجر..............................37
- السحابة والتراب..........................40
- كلب مخلص..............................46
- وداعاً للظلام............................51
- جائزة استحقاق الحياة......................45

مجموعة قصصية يسكب فيها الكاتب خيالاته و أفكاره ويطرحها في أسلوب قصصي سردي يحاكي الحياة، يراقب البشر، يناظر الحقيقة ويشكو واقع النّاس. يحكي الكاتب عن سعادة النورس، وعن نهاية كلب مخلص.

يروي لنا قصّة طريفة لباحث اجتماعي في حديقة. و في قصّة أخرى يسرد لنا أخبار رجل يبحث عن الحقيقة، فيدرك أنّ الحقيقة و الجمال شيء واحد. و في قصّة طائر مهاجر يجوب بنا الأقطار و البحار، و نشهد ظُلم الإنسان لأخيه الإنسان. أمّا في قصّة السحابة و التراب، فيضرب لنا الكاتب مثلا في الرضا. و بلغة رمزية، يحثّ النفس البشرية في قصّة "وداعا للظلام" على الخروج من ظلمات الاستسلام و الخنوع إلى نور التفاؤل. و في مسك الختام، قصّة تحكي أزمة الأخلاق.

المؤلف

Dépôt légal : 1026-2015
9 789947 660379
Edition Dar Elqods